الفتوة الحاتمية

بالإشارة للختمية التجانية

إعداد الفقير إلى الله

عدنان بن عبد الله زُهار

كان الله له

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم،

وبعد،

مقدمة

فإن الحضرة التجانية قائمة مقام الوراثة العامة عن سيد الوجود صلى الله عليه وآله وسلم في الدلالة على الله والإرشاد للطريق الموصل إلى الله، في كل تجلياتها الإحسانية ومظاهرها العرفانية.

فعرف أصحاب سيدنا الشيخ أبي العباس عنه من أبواب الحقيقة ما عرفه خلص الأصحاب رضي الله عنهم عن المصطفى عليه الصلاة والسلام، وتعرف عوام مريديه عنه مباشرة أو عمن بلغ عنه من أصحابه الضروري من علوم الدين التي لا يعذر بجهله أحد من المسلمين، كما حصل كذلك لباقي الأصحاب ومن أتى بعدها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بواسطة وبغير واسطة.

فلا غرو أن تكون الحضرة التجانية من هذا القبيل ومن كل قبيل نسخة مصغرة أو أنموذجا للحضرة المحمدية، من باب الدلالة على الله.

فمن الأمور المكتومة على غير أصحاب سيدنا أحمد التجاني، كون طريقته وخلافته محمديتين، يقتضي منه أن يوجد في ظاهر حال الطريقة وأصحابها وباطنه، ما وجد مثله في الرسالة المحمدية، كما فصل ذلك ببيان وأتى له بأسطع برهان، الإمام الحجة الناطق الفهم بالغ المحجة سيدي العربي بن السايح رضي الله عنه وعنا به آمين، في مقدمة "البغية" عند ذكر سبب تسمية طريقتنا محمدية، فذكر لذلك عدة أوجه تطلب في محلها،

ومنها أنها الطريقة الخاتمة بين الطرق كما أن شريعته خاتمة الشرائع، وأن الطرق كلها منسوخة بها كما هو حال الشريعة المحمدية، وكون من أخذها ثم انسلخ منها تأخذه المصائب كل مأخذ كما هو الدين المحمدي، وأن الله ضاعف حسنات أصحابها كما أعطى ذلك لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وغير ذلك مما لم يذكره الإمام سيدي العربي بن السايح من مظاهر مشابهة طريقتنا المحمدية الأحمدية لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأنها حضرة صغرى لكبرى من كل الوجوه، ككونه رضي الله عنه مات على عدد من الأصحاب هوعينه عدد مات عنهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما صرح به العارف بالله سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه في مقدمة "كشف الحجاب"، وككون الإذاية في هذه الطريقة بلغ كما كان أمرها في حق الجناب المحمدي وظله من الاصحاب والتبع الكرام...الخ

ومن مظاهر اتحاد الحضرة التجانية في الأنموذج القهري الذاتي كون سيدنا أحمد التجاني رضي الله عنه وعنا به آمين ختما للأولياء كما فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن جعله الله ختما للأنبياء.

تعريف الختمية

قد علم الناس أن لكل علم مصطلحه ولكل فن لغته، والأبدال والأقطاب والأوتاد ومقامات الختمية والكتمية وما شابه ذلك لغة صوفية لا يحجر فيها أو يشدد في إنكارها إلا متنطع، إذ لو كان الإنكار سائغا لجاز على أكثر علوم الأمة التي بها قوام الدين...

وقد وردت بتسميتهم أخبار وأحاديث حاول بعض المنكرين ردها وتضعيفها دفعا بالصدر وجريا على قواعد مقلوبة في الصناعة الحديثية مع تناقض في التحرير، إلا أن الإمام جلال الدين السيوطي كتب في موضوعها جزءًا هاما سماه "الخبر الدال على وجود الأقطاب والأوتاد والنجباء والأبدال"، جمع فيه أكثر ما جاء في هذا الباب من أحاديث صحاح وحسان وضعاف ومراسيل مقبولة على اعتبار أن الحديث الضعيف

مجبور بما له من شواهد ومتابعات، وبأنه جاء من طرق متعددة، فارتفع إلى مرتبة الحسن لغيره، فيؤخذ به حتى في الأحكام.

فمنها: ما رواه الطبراني في الأوسط عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن، فبهم تسقون، وبهم تنصَرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه أخر"... قال قتادة: لسنا نشك أن الحسن منهم رضي الله عنه، قال الحافظ الهيثمي في "مجمع الزوائد": إسناده حسن.

ومنها ما رواه أحمد في مسنده وأبو داود وابن أبي شيبة وأبو يعلى الحاكم والبيهقي بإسنادهم عن السيدة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : "يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة ويخرجوه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه".

ومنها ما رواه أبو نعيم ابنُ عساكر عن ابن مسعود رض الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:" إن لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام، ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة،وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة وإذا مات من السبعة أبدل مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العام."

ويقول العلامة ابن حجر الهيتمي: "ورجال الغيب سُموا بذلك لعدم معرفة أكثر الناس لهم، رأسهم القطب الغوث الفرد الجامع جعله الله دائرا في الآفاق الأربعة لأركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء وقد ستر الله أحواله عن الخاصة والعامة غِيرَةً عليه غير أنه يُرى عالما كجاهل وأبله كفطن وتاركا أخذا بعيدا سهلا عسرا، أمنا حذرا، ومكانته من الأولياء كالنقطة من الدائرة التي هي مركزها به يقع صلاح العالم . والأوتاد هم أربعة لا يطلع عليهم إلا الخاصة واحد باليمن وواحد بالشام وواحد بالمشرق وواحد بالمغرب، والأبدال وهم سبعة على الأصح، وقيل ثلاثون وقيل أربعة عشر، كذا قاله اليافعي، والأصح أنهم سبعة، والنقباء وهم أربعون والنجباء وهم ثلاثمائة ... فإذا أراد الله قيام الساعة آماتهم أجميعن، وذلك أن الله يدفع عن عباده البلاء بهم وينزل بهم قطر السماء.

فقد رأيت أن هذه المصطلحات وردت بها السنة، فادعاء غير ذلك مكابرة محضة بينة...ولو لم ترد ما منعت لورود مثلها في علوم أخرى ولا مشاحة في الاصطلاح كما يقال...

ولا مانع أيضا من أن يختلف الصوفية في تعريفها، أو بيان مراتب الناس المتقلبين فيها، فالأمر ليس وحيا حتى يكون فيه القول الفصل، بل يرجع إلى ما لاح لكل ولي في بيان نسبته إلى واحدة منها، بل قد يكون خلافهم في فهمها أو تعريفها سائغا مقبولا غير دال على تناقض كما حرره البحث التاريخي...

أما مقام الختمية ففيه من الكلام ما لا يتحمله هذا الجواب المختصر، ولم أر مزيدا على ما حققه الإمام العارف العالم العامل مفخرة التجانيين سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه، في مؤلف له خاص في الموضوع سماه: "نهج الهداية في معنى الختمية" ولم يسبق إليه، وحاصل ما خلص إليه "أن أهل الله العارفين به لهم اصطلاح خاص بهم فيما يخوضون فيه من المعارف ويرتقون فيه من المراتب، على قدر اختلافهم في المشارب، فكانت الولاية لديهم عامة وخاصة، ولها مقامات، ولكل صاحب مقام منها اسم أو لقب أو كنية يمتاز بها عن غيره ممن حل في مقام منها بحسب الترقي والتدلي.

فكان منهم القطب والغوث والبدل والنقيب والنجيب والختم، وغير هؤلاء من أصحاب المراتب الخاصة على الجميع السلام. فالقطبانية مثلا من حل في مرتبتها يسمى قطبا، إما قطبا جامعا، أو قطب دائرة من دوائر الولاية العامة أو الخاصة، سواء كان من المتعددين أو المتفردين، وهكذا الشأن فيما بقي من المراتب مثل الختمية والكتمية والمهدوية، فكل من حل في مقام من هذه المقامات سمي بمظهره. فمن حل في مقام الختمية سمي بالخاتم، وهكذا من حل في المهدوية يقال له مهدي، وليس المراد بالخاتم أنه لا يوجد ولي معه أو بعده، ولا بالمهدي لا مهدي بعده. وإنما المراد بالخاتم من حل في مرتبة الختمية إلى أن تختم بعيسى عليه السلام، ثم بخاتم الأولاد الذي لا ختم بعده. وهكذا الشأن في المهدي إلى أن يظهر المهدي المنتظر قرب الله زمانه.

وبما بيناه هنا لم يبق إشكال في تعدد الختم وتعدد المهدي ونحوهما. لأنهم أصحاب مراتب لم يخل من صاحبها في كل زمان. وتلك المراتب متفاوتة في العلو والارتفاع في الخفاء والظهور، وقد انفرد بكمال الظهور فيها من خصه الله به مثل الشيخ التجاني رضي الله عنه، فهو خاص بكمال الظهور في الختمية، فلم يحل أحد من الأختام في المحل الذي حل فيه، بما خصه الله به من ذلك الكمال، كما خص الحق بكمال الظهور في المهدوية المهدي المنتظر الذي نوهت الأحاديث به، وكل من أخبر بأنه ختم أو أنه مهدي، أو اجتمع بواحد منهما، وإن احتمل أخباره الصدق والكذب فلا معنى لتكذيبه سوى سوء الظن الحامل لكثير المنتقدين على ذلك، فإن غير الشيخ رضي الله عنه قبل وجوده قد اجتمع بالخاتم صاحب الختمية، مثل ابن العربي الحاتمي قدس سره، وقد ادعاها لنفسه، فادعاؤها لنفسه مع كونه يقول اجتمعت به دليل واضح على تعدد الختمية، وكذلك المهدوية، وكذا غيره من أصحاب هذا المقام، فلا معنى لتكذيب من اجتمع بالخاتم أو بالمهدي فيما مضى من الأزمنة. ولا يكون صاحب كمال الظهور إلا واحدا، كما أن المهدي المنتظر واحد،

ابن العربي الحاتمي والختمية

ولقد تكلم على الختم جماعة من العارفين كابن عربي الحاتمي المذكور، ومن انتهج منهاجه من ذوي المشارب العرفانية، وقد بسط القول في المهدي الذي هو أحد الأختام المهديين، مع الخاتم الأكبر عيسى عليه السلام، في تأليفه عنقاء مغرب، وخصصها بما ذكره هناك.

قال رضي الله عنه كما في "الفتوحات" ج 2 ص 49: "وأما ختم الولاية فهي لرجل من العرب من أكرمها أصلا ويدا، وهو في زماننا اليوم موجود، تعرفت به سنة 595هـ ورأيت العلامة التي له قد أخفاها الحق فيه عن عيون عباده، وكشفها لي بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية منه، وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق في سره من العلم به إلخ... "

وقد بيّن سيدى محمد المشري ابن عبدالله العلوى رضى الله عنه هذا في الجواب عن سؤال بصدده، ونص السؤال: ما الفرق بين ختمية الشيخ التجانى وكتميته؟

ونص الجواب: أقول إن ختميته هي مرتبته في ختمية الولاية في دائرة الصفة حال كونه نائباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المقام فهو ممد جميع الأولياء من هذه المرتبة . وإلى هذه المرتبة أشار رضى الله عنه بقوله: روحي وروحه صلى الله عليه وسلم كهاتين- وأشار الى السبابة والوسطى- فروحه صلى الله عليه وسلم تمد الأنبياء والمرسلين ، وروحي تمد الأقطاب والعارفين .

أما كتميته رضى الله عنه، فإنها مرتبة الولاية الخاصة به من حيث ولايته فى دائرة الاسم ، وإليها اشار رضى الله عنه بقوله: لنا مرتبة عند الله تناهت في العلو إلى قول يحرم ذكره وإفشاؤه، وليست هي مما ذكرته لكم .. إلى آخره .فإنه كتمها ، فعلمنا أنها مرتبة كتمه. وأقول بعبارة أخرى إن الأولى مرتبة إمداده ، والثانية مرتبة استمداده، وبعبارة أخرى - الأولى - مرتبة ظهوره والثانية مرتبة بطونه . وبعبارة أخرى ، الأولى مرتبة بطونه والأخرى مرتبة بطون بطونه، وقد أشار إليهما معاً بقوله رضى الله عنه :

قدماى هاتان على رقبة كل ولىّ لله من لدن آدم الى النفخ الصور ، إلى غير هذا مما لا يكتب في الأوراق ولا ينظر بالأحداق جعلنا الله وإياكم من خاصة الخاصة في أصحابه واحبابه.

قال سكيرج" أما الكتمية فالوجهة الأخرى الخفية للختمية، ومعناها كما قيل: ما يكتتم عن الغير مما لا يعلمه إلا رب العالمين ومما وجب للختم من صفات، فالكتمية لا يعرفها أحد سوى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ كما ورد عن سيدنا الشيخ نقلاً من الرماح: أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأني أنا القطب المكتوم منه إلي مشافهة يقظة لا منامًا. فقيل له: ما معنى المكتوم؟ فقال هو الذي كتمه الله تعالى عن جميع خلقه حتى الملائكة والنبيين إلا سيد الوجود صلى الله عليه وسلم.

أما تعريف القطب المكتوم فكما وصفه سيدي أحمد التجاني في الإفادة: القطب المكتوم هو الواسطة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء لأنهم لا يطيقون تلقي الفيض منه صلى الله عليه وسلم إلا بواسطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وواسطته ومدده الخاص (أي القطب المكتوم) إنما يتلقاه منه صلى الله عليه وسلم من غير واسطة نبي لأن له مشرب حضرته رضي الله عنه مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. اهـ

كما أشار سيدنا ابن العربي رضي الله عنه في إجابته عن السؤال السادس و الثلاثين بعد المائة من اسئلة الحكيم الترمذي أن صاحب الكتمية جعله الله بالمغرب. قال رضي الله عنه في الفتوحات: "الجواب :...قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاتزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة" وعليه تطلع الشمس من المغرب عندما يسد باب التوبة ويغلق ((فلا ينفع نفسا إيمانها)) ولا ما تكسبه من خير بذلك الإيمان. والمومن لا يغلق له باب. وكيف يغلق دونه وقد تجاوزه وتركه وراءه؟ فمن عناية المومن غلقه حتى لا يخرج عليه بعد ما دخل منه. فلا يرتد المومن

بعد ذلك ،فإنه ليس له باب يخرج منه ،فغلق باب التوبة رحمة بالمومن و وبالا على الكافر."

وجعله الله بالمغرب لأنه مجلى الأسرار والكتم .وهو سر لا يعلمه إلا أهل الاختصاص. فلو كان هذا الباب بالشرق لكان ظاهرا عند العام والخاص ،ووقع به الفساد في العموم .وهذا يناقض ماوجد له العام من الصلاح)).اهـ

قلت: ولا عبرة بمنتقد مكذب لمن وجب تصديقه من أهل الله العارفين، ولا عبرة بمن انتقد اصطلاح أهل الفن العالمين...فالمنتقد محجوب والمحجوب عن الحق كأعمى لا يدرك للشمس ضوءا:

الشمس حق والعيون نواظر لكنها تخفى على العميان